المحاضرة العاشرة .....البلاد العربية الحديثة

الأحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠:-

الاحتلال الفرنسي للجزائر يعد واحداً من أطول الاحتلالات وأكثرها بشاعة في التاريخ الحديث، وخلال أكثر من ١٣٢ عاماً (منذ العام ١٨٣٠ حتى العام ١٩٦٢) قدم أبناء الجزائر أرواحهم فداءً لتحرير وطنهم، الذي صار اسمه الجديد "بلد المليون شهيد". بدأت قصة الشعب الجزائري مع المعاناة في عام ١٨٢٧، عندما وقعت معركة نافارين، التي دارت بين الأسطول العثماني ومعه الجزائري والمصري، وبين الأساطيل البريطانية والفرنسية والروسية من جهة أخرى. انهزم العثمانيون في خليج نافارين جنوب غرب اليونان، وكانت هذه بداية النهاية والانهيار البحري للأسطول العثماني، وسقوط الجزائر بعدها بأعوام تحت الاستعمار الفرنسي، ونقطة محورية في انفصال اليونان عن الحكم العثماني.

انتهزت فرنسا في هذا الوقت ضعف الدولة العثمانية والجزائر، خصوصاً أن أسطول الجزائر البحري قد انهار، وأصبحت المياه الإقليمية الجزائرية مفتوحة أمام القوات الفرنسية، التي كانت تخطط لاحتلالها قبل أعوام، وكان لذلك أسباب وعوامل مختلفة، كموقع الجزائر على البحر المتوسط، والاستفادة من خيرات هذا البلد ومن الكوادر البشرية فيه، واستعادة هيبتها كقوة استعمارية.

في عام ١٨٢٧، اتخذت فرنسا من الحادثة المشهورة باسم "مروحة الداي" ذريعة لها لاحتلال الجزائر، والحادثة باختصار هي أن الداي حسين حاكم الجزائر في تلك الفترة، ضرب قنصل فرنسا على وجهه بمروحة يده ثلاث مرات، عندما لم يُجب القنصل

عن سؤال الداي بشأن ديون فرنسا للجزائر، فاعتبرت فرنسا أن هذه إهانة كبيرة لها، ففرضت حصاراً على البلاد لمدة ٣ أعوام،

وبدأت فرنسا هجماتها على ميناء طولون، بمشاركة ٣٧ ألف جندي، ومع حلول ١٤حزيران ١٨٣٠، تمكَّنت الحملة الفرنسية من الوصول لمنطقة سيدي فرج، وأحكمت قبضتها على البلاد، وفي ٥ تموز من العام ذاته، سلم الداي حسين مدينته للقوات الفرنسية ليبدأ الاحتلال الفرنسي للبلاد، الذي بدأ مباشرة بمحاولاته لتجهيل الشعب الجزائري والتلاعب بثقافته، بل وحاول تغيير دينه.

سياسة فرنسا في الجزائر:-

اتخذت فرنسا منذ بداية احتلالها للجزائر سياسة واضحة، وهي محو ثقافة البلاد وتحويلها إلى ثقافة تبعية، تتبع فرنسا بشكل كامل، تفكك فيها أوصال المجتمع الجزائري الأصيلة، واتخذت في ذلك عدة خطوات:-

أولها:- سياسة ارتكاب الجرائم والإبادة الجماعية، لتغيير ديموغرافية البلاد، والقضاء على مقاومة الشعب الجزائري من البداية.وهذه كانت رؤية الجنرال الفرنسي بيجو، الذي حل بالجزائر سنة ١٨٤١،

ثانيها:- خطوات الاحتلال الفرنسي وأكثرها خطورة هي محاربة اللغة العربية، وإجبار الأهالي على استعمال الفرنسية، والتي جعلوها هي اللغة الرسمية وحدها، في الروضة والمدرسة والجامعة، وقامت فرنسا بإنشاء إدارة جديدة مفرنسة، وعملت على شطب الأسماء العربية للمدن والشوارع والمعالم، واستبدلتها بأسماء فرنسية.

كما عملت على إصدار عدة مراسيم لـ"فرنسة التعليم"، ومنها مرسوم عام ١٩٠٤، والذي يقضي بمنع أي معلم من فتح مدرسة قرآنية إلا بترخيص وشروط كثيرة جداً، بعد التزامه بجملة من الشروط التعجيزية، ثم أصدرت قانون عام ١٩٣٨، الذي قضى بحظر استعمال اللغة العربية، بل واعتبارها لغة أجنبية، كما تم العمل بشكل منهجي على تدريس جغرافيا وتاريخ فرنسا على أنهما جغرافيا وتاريخ الجزائر، وتشويه التاريخ الإسلامي ،وكان التنصير من خطوات الفرنسيين في الجزائر، حيث تم تحويل أغلب من المساجد إلى كنائس وثكنات وإسطبلات، وتم تشجيع البعثات التبشيرية للانتشار في البلاد لتنصير الشعب، ومحاولة لإنهاء الإسلام لديهم، وتمت مصادرة الأوقاف الإسلامية، وجعلها تحت تصرف المبشرين، وكان الكاردينال لافجري من أشد المتحمسين للتنصير، الذي قال: "علينا أن نجعل من أرض الجزائريين مهداً لدولة مسيحية... تلك هي رسالتنا"، وسيطر الفرنسيون أيضاً على الطرق الصوفية لتنشر الخرافات التي تضر بمفاهيم الإسلام.

وبطبيعة الحال قام الفرنسيون بعمليات إفقار للشعب الجزائري، من خلال اغتصاب وسلب الأراضي الزراعية الخصبة، وإعطائها للمعمرين من فرنسيين أو من المتفرنسنين، الذين تم جلبهم من دول أوروبية عدة، وبعد تجريد الشعب الجزائري من ممتلكاته أخضعته لقوانين قاسية، ومنها قانون الأهالي عام ١٨٧١، والذي فرض عليه حمل رخصة تجيز له التنقل من مكان لآخر داخل وطنه، فإذا لم تكن بحوزته يعاقب، وقد أصاب الجزائريين نتيجة هذه السياسة فقر مدقع.

كل هذه العوامل كانت تصب في فكرة الدمج التي كانت تعمل عليها فرنسا، في سبيل اقتلاع الجزائر من محيطها العربي والإسلامي، وتذويبها في الكيان الفرنسي بشكل قانوني، بعد إصدار مرسوم عام ١٨٣٤، الذي اعتبر الجزائر أرضاً فرنسية، وفي عام ١٩١٢ أصدرت قانون التجنيد الإجباري على الجزائريين في الجيش الفرنسي باعتبارهم رعايا فرنسيين.

المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسي:-

قاوم الشعب الجزائري قوات المحتل الفرنسي وقراراته منذ أولى سنوات الاحتلال، وخاض ثورات كثيرة ضد المحتل بقيادة علمائه وشخصياته البارزة، وكانت أولها ثورة عبدالقادر بن محيي الدين عام ١٨٣٢، وكان بينه وبين الفرنسيين صولات وجولات أزعج فيها القوات الفرنسية، ولكنه سقط في الأسر عام ١٨٤٧.

وقد تبعته عدة حركات لمقاومة المحتل والثورة عليه، كمقاومة أحمد باي في منطقة قسنطينة عام ١٨٣٧، وثورة محمد بومعزة عام ١٨٥٤، ومقاومة الخليفة أحمد بن سالم في الأغواط، وثورة الزعاطشة عام ١٨٤٨، والكثير من الثورات التي استمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر، وكانت تسبب الإزعاج للمحتل، ولكن كانت تواجه بكل شراسة من الفرنسيين.